

الضَّلَالُ

عناصر الموضوع

٣٠٢	مفهوم الضلال
٣٠٤	الضلال في الاستعمال القرآني
٣٠٥	الألفاظ ذات الصلة
٣٠٨	الضلال والهداية بيد الله تعالى
٣١٢	شراء الضلالة
٣١٤	الضلال المبين والبعيد
٣١٧	أنواع الضلال
٣٢٠	أسباب الضلال
٣٢٦	مجالات الضلال
٣٣١	مظاهر الضلال
٣٣٦	آثار الضلال في الدنيا والآخرة
٣٣٨	علاج الضلال

مفهوم الضلال

أولاً: المعنى اللغوي:

الضاد واللام أصل يدل على ضياع الشيء، وذهابه في غير حقه، يقال: ضَلَّ اللبن في الماء، بمعنى: استهلك وضاع، وأضل الميت، إذا دفن، وكأنه شيء قد ضاع، يقال: ضَلَّلت أَضِلُّ وأَضِلُّ، لغتان، وضَلَّلت أَضِلُّ وأَضِلُّ، وهما لغتان أيضاً، والضَّلَال والضَّالَّة بمعنى واحد، ورجلٌ ضَلِيلٌ ومُضَلَّلٌ، إذا كان صاحب ضلالٍ وباطل^(١).

وكل جائرٍ عن القصد فهو ضالٌّ، وما كان ضد الهدى والرشاد فهو ضلالٌ وضلالة^(٢)، وكل حيادة عن طريق الحق فهو ضلالٌ أيضاً، والنسيان من الضلال^(٣).

وأما قولهم: الضالة، فإنها لا تقع إلا على الحيوان ذكراً كان أو أنثى، وأما الأمتعة من غير الحيوان، فلا يقال لها ضالة، ولكنها تسمى لقطة^(٤).

إن مادة ضل جاءت في اللغة على معانٍ متعددة، منها: ضاع، ومات، وصار تراباً وعظاماً، وخفي وغاب، ونسي^(٥).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

إن الضلال والضلالة مصطلحان متقاربان، لكنهما يختلفان في نقاط، أهمها^(٦):
إن الضلالة والضلال يشتركان في أن كليهما يعني فقد ما يوصل إلى المطلوب، إلا أن الضلال يختص بأنه خطأ الشيء في مكانه دون الاهتداء إليه.

والضلالة بمعنى الهلاك والإضاعة، والضلال بمعنى الضياع والعدول عن الطريق المستقيم.

وعلى هذا فإن الضلالة أعم من الضلال، لكن الضلال أخص وأدق في طبيعة تشخيص أمراض الأمة، كما أنه محل هذه الدراسة، ومن ثم فقد فطن العلماء للفرق بينهما، وهذه

- (١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣.
- (٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠.
- (٣) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٥٨.
- (٤) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، الأزهرى ص ١٧٧.
- (٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص ١٠٢٤.
- (٦) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٧٦.

بعض تعريفاتهم لمصطلح الضلال، وذلك فيما يأتي:

عرفه السيوطي رحمه الله بأنه: «اعتقاد الباطل حقًا، أو الكذب صدقًا، أو القبح جميلًا، وبالعكس»^(١).

وعرفه الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى بأنه: «العدول عن الطريق المستقيم، ويزاده الهداية»^(٢).

وعرفه الجرجاني والمناوي رحمهما الله تعالى بأنه: «فقدان ما يوصل إلى المطلوب»^(٣).

وذكر البعض تعريفًا له بأنه: كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا^(٤).

وبالنظر إلى التعريفات السابقة لمصطلح الضلال يتبين أن التعريف الأخير هو الراجح؛ لموافقته المعنى اللغوي من جهة، ولاشتماله على جميع المعاني المتفرعة من مادة ضل في القرآن الكريم من جهة أخرى، والله أعلم.

(١) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٢.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٩.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص ١٣٨، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٢٣.

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٢٣.

الضلال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ض ل ل) في القرآن الكريم (١٩١) مرة ^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥٨	﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]
الفعل المضارع	٥٩	﴿لَهْمَتْ ظِلْفَكُ مِنْهُمُ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١١٣]
المصدر	٤٨	﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]
اسم الفاعل	١٧	﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ لِقَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]
أفعل التفضيل	٩	﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

وجاء الضلال في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه ^(٢):

الأول: الضلال بمعناه اللغوي الذي هو ضد الهدى، وهو الحيرة والضياغ والبعد عن الصواب، ويدخل فيه الغواية والخطأ والخسران وغير ذلك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. يعني: أغوى.

الثاني: الإبطال: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ١]. يعني: أبطلها.

الثالث: الجهل أو النسيان: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمَرَاتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. يعني: تنسى.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٢١-٤٢٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الضاد ص ٧١٤-٧١٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٣١٠-٣١٢، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص ٤٠٦-٤٠٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٣/ ٤٨١-٤٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغي:

الغي لغة:

الإمعان في الضلال، قال تعالى: ﴿مَاضِلٌ سَاجِدٌ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢].
فهو غاوٍ، وغويٌّ وغيان، وأغواه أضله وأغراه^(١).

الغي اصطلاحًا:

«سوء التصرف في الشيء، وإجراؤه على ما يسوء عاقبته»^(٢).

الصلة بين الغي والضلال:

الضلال أوسع دلالة، إذ إنه يعني: أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلاً، سواء أكان حكمًا أو عملاً، والغواية: أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم.

٢ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الإيمان، لأنه تغطية للحق^(٣).

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»^(٤).
وقيل: هو تغطية الحق بالباطل، بما يكون نقيض الإيمان^(٥).

الصلة بين الكفر والضلال:

الضلال أوسع مضمونًا من الكفر؛ إذ إن الكفر يعني الجانب العمد من العدول عن المنهج، بما يكون نقيضًا للإيمان.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٧.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٥٥.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.

(٥) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص ٧٤.

٣ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: «أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكاً في ملكه تعالى الله عن ذلك»^(١)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحاً:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه^(٢).

الصلة بين الشرك والضلال:

الشرك والضلال يتفقان أن كونهما عدولاً عن المنهج، لكن الضلال أعم كونه يشمل العدول سهواً أو عمدًا، وأن الضلال العمد أعم من الشرك؛ إذ إن من الضلال ما لا يخرج من الدين، ومنه ما يخرج.

٤ الهلاك:

الهلاك لغة:

الموت، يقال: هلك هلاكًا، وهلكًا، وتهلوكًا وهلوكًا، واستهلك المال: أنفقه وأنفذه، وأهلكه: باعه، والمهلكة: المفازة^(٣).

الهلاك اصطلاحاً:

«تداعي الشيء إلى أن يطل ويفنى»^(٤).

الصلة بين الهلاك والضلال:

الضلال أعم وأشمل من كون أن الهلاك يعني النفاذ والموت والإنفاق والبيع، فقد لا يترتب على فعله حكم شرعي، وقد يترتب، أما الضلال فهو جانب له علاقة بالقلب أولاً من كونه يترتب عليه حكم شرعي غالباً.

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص ٩٥٨.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٤٤.

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبا^(١)، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: يدل على إحكام الشيء وصحته^(٢).

الحق اصطلاحًا:

هو الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان، ويقابله الباطل^(٣).

الصلة بين الحق والضلال:

الحق هو ضد الباطل، الذي أعم من الضلال، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير بتغير زمان أو مكان.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٦/٣، المصباح المنير، الفيومي ١/١٤٣.

(٢) مقاييس اللغة ٢/١٥-١٧ بتصرف.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٩.

الضلال والهداية بيد الله تعالى

من الأمور المسلم بها أن الضلال والهداية بيد الله تعالى؛ فلا يضل أحدٌ إلا بعلمه، ولا يهتدي أحدٌ إلا بإذنه، وسوف يتم تناول هذا -إن شاء الله تعالى- بالتفصيل فيما يلي:

أولاً: الضلال والهداية بمشيئة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا ضَلُّوا وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه، ولهذا فهو المتصرف في خلقه بما يشاء^(١).

وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده؛ لينفذ فيه عدله، وقوله: ﴿وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام؛ لينفذ فيه فضله، والمشيئة راجعة إلى الكاذبين، فمنهم من يضلّه ومنهم من يهديه^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: فمن يرد الله تعالى أن يكتب له الهداية التوفيقية فضلاً عن الإرشادية يشرح صدره، فيوسع قلبه لقبول الإيمان، والخير، وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عملٍ من الأعمال أن نفعه زائد، وخيره راجح، مال بطبعه إليه، وقويت رغبته فيه، فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانسراح الصدر، والشرح نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فيعرف بذلك النور الحق، فيقبله وينشرح صدره له. وأما من يريد الله تعالى أن يكتب له الضلالة فإنه يجعل صدره ضيقاً؛ حتى لا يدخله الإيمان، فليس للخير فيه منفذ^(٣).

وقد وردت آية أخرى قريبة من هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(٤)، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٥٤-١٥٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ٢٥٢/١، رقم ٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤٢٢/٦.

وتنويره^(١).

وقد وضع القرآن الكريم عدة معالم في هذا الموضوع، منها:

١. لا هادي لمن أضله الله تعالى.

قد ورد معنى كون الهداية والإضلال بيده سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيَائًا وَبُكَاءً وَهَمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قال الإمام الرازي: «فالمقصود تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال»^(٢).

ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الضالين الذين أضلهم الله تعالى سيسحبون يوم القيامة على وجوههم، أو يمشون بها، فكما مشوا في الدنيا على أقدامهم سيمشون يوم القيامة على وجوههم^(٣).

الزكاة، باب النهي عن المسألة ٢/٧١٨، رقم ١٠٣٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨١/٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/٤١١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/٢٦٧.

ثم تأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية لتبين عاقبة الضالين بأنهم «كلما أكلت لحومهم، فسكن لبيها، بدلوا أجسادًا أخرى، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت»^(٤).

وإن هذه الآية الكريمة حالها كحال الآيات المكية، تبين أن الهداية هنا هداية إلى الإيمان، والضلال فهو استحباب الكفر على الإيمان، ولذلك فإن سحب الولاية المذكور في الآية يأتي في سياق أن الكافرين الضالين إذا اختاروا الضلالة سوف يكتب لهم الغواية، وسيستدرجون إلى مزيد من الذنوب؛ حتى يأخذهم الله تعالى للعذاب الأليم، يضاف إلى أن مبدأ النصرة لهم من دون الله تعالى محال في حقهم.

٢. عِلِّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالضَّالِّينَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

فقد بينت الآية السابقة أن الرسول صلى الله عليه وسلم إن يطع أكثر أهل الأرض من كفار قريش فيما يدعونه إلى ملة آبائهم؛ فإن أكثر أهل الأرض كانوا كفارًا، وإن هؤلاء الكفار ما يتبعون إلا الظن في أكل الميتة واستحلالها، وما هم إلا كاذبون في استحلالهم الميتة^(٥).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/٤٥٥.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/٤٧٧.

جليًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ فَیُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالمعنى: لست يا محمد صلى الله عليه وسلم بيدع من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، على عادتنا في رسلنا، في أن نبعثهم بالسنة القوم الذين أرسلوا إليهم؛ ليقع البيان والعبارة المتمكنة، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يطلب منه أن يبلغ ويبين، ولم يكلف أن يهدي ويضل، بل إن ذلك بيد الله تعالى، ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزة التي لا تعارض (٤).

وإن من لطفه تعالى أنه يرسل إلى خلقه رسلاً منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم (٥)، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه) (٦).

وقد أفردت كلمة «لسان» رغم إضافته إلى القوم؛ لأن المراد اللغة، وهي اسم جنس

وتأتي هذه الآية لتبين أن الله تعالى الذي هو رب كل شيء، هو أعلم من يضل عن سبيل الله الذي هو الدين (١).

فهو يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم على الهدى، وأن المشركين ضلوا عن سبيله، وفي هذا بشارة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أنك على الصراط المستقيم، أما المشركون فهم الذين عدلوا عن الصراط المستقيم عمداً وإمعاناً في الضلال (٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

أي: إن الله تعالى الذي هو ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم هو أعلم بمن عدل عن طريق الحق وهو أعلم أيضاً بالمهتدين الذين يتبعون ذلك الحق.

والمقصود أن الله تعالى يبين بأنه هو أعلم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه المهتدي وأن قومه هم الضالون (٣).

٣. الإضلال بعد إقامة الحجة بالرسول وورثتهم.

قد ورد ذكر الإضلال بعد إقامة الحجة

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٣٢٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٤٧٧.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ٣٥/٣٢٣، رقم ٢١٤١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٩٢٢/٢، رقم ٥١٩٧.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/١٣٧٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/٩٤.
(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/٧٦٢٣.

يقع على القليل والكثير^(١).

وثمة سؤال يتم طرحه، وهو: كيف تذكر هذه الآية أنه ما من رسولٍ إلا ويبعث بلغة قومه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى كافة الخلق، مع اختلاف لغاتهم؟ وجواب ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث من العرب بلسانهم، والناس تبع لهم^(٢).

ثانيًا: نسبة الضلال إلى الإنسان:

قد ورد ذكر نسب الضلال إلى الإنسان جليًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفِئْتُ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

أي: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم إن عدلت عن الطريق الواضحة، فإن إثم ضلالتني وعدولي عن المنهج يكون على نفسي^(٣)، فإن ما تدينت به من الدين إن كان ضلالًا - كما تقولون - فإنما وبال ضلالي يعود إلى نفسي، فكيف أختار الوبال على نفسي، مع أنه لا جنون بي، ولا منفعة دنيوية تعود إلي؟!

وإن كان هذا هدايةً، فليس من قبل نفسي، ولا من عند أحدٍ من أهل هذا البلد؛

لأن ظاهر الأمر أنني أمي ما كتبت ولا قرأت، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن إلا مستقى من الله تعالى وحياً فلزم، بل وجب عليكم أن تتبعوني، فتتدوا كما اهتديت^(٤).

إن الرد القرآني في هذه الآية الكريمة على الكفار - الذين زعموا أنه صلى الله عليه وسلم غير صادق في دعوى الرسالة، وأنه على ضلال - كان قاطعاً بأنه على هدى، بقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ

وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وانتقل هنا إلى متاركة جدالهم، وتركهم وشأنهم؛ لقلة جدوى مراجعتهم، وصيغة القصر هنا لتبين أن الضلال المفروض على نفسي لا عليكم؛ لأنهم كانوا يحاولون أن يقلعوه عما دعاهم إليه، ولم يقتصروا على صدودهم^(٥).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٤٠/٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣٠/٣.

(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ٢١٠/١١.

(٤) انظر: التفسير المظهر، ٣٨/٨.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣٩/٢٢.

شراء الضلالة

ورد شراء الضلالة في موضعين من القرآن الكريم، وهما:

الأول: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِخَنزِرِهِمْ وَمَا كَانُوا مُنْتَفِعِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

حيث إن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن المنافقين وصفاتهم؛ حتى حكم عليهم بأنهم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، فيكونون بذلك قد استبدلوا الكفر بالإيمان؛ لأن استبدالهم الضلالة بالهدى كان استحباباً فيه، ومثل هؤلاء المنافقين في الوصف القرآني قوم ثمود؛ حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن النتيجة عند الله تعالى أن صفقتهم في هذه البيعة كانت خاسرة، ومن ثم فإنهم لم يكونوا راشدين في صنعهم ذلك^(١)؛ إذ إنهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا ما يوصل إلى خير الآخرة، ولا ما يضر المسلمين، وهذا نداء عليهم بسفه الرأي، وهو العلة لعدم ربح التجارة، حيث شبه سوء تصرفهم بسوء تصرف من يريد الربح، فيقع في الخسران^(٢).

قال السمرقندي رحمه الله: «وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة؛ لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء»^(٣)؛ ولذلك فإن الربح قد أسند إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي^(٤).

الثاني: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

حيث وردت هذه الآية في معرض الحديث عن اليهود عامة، وعلمائهم خاصة، فقد بينت الآية السابقة أن هناك وعيداً شديداً لمن كتم ما أنزل تعالى على رسله من العلم الذي أخذ الله تعالى الميثاق على أهله أن يبينوه ولا يكتموه، فيكونون يتغنون بذلك تحصيل المال، فمن تعرض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله تعالى فإن هذا المال الذي يأخذونه ناراً في بطونهم؛ لأنه اكتساب حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، وليس الأمر كذلك فحسب، بل يسخط الله تعالى عليهم، ويعرض عنهم يوم القيامة، ولا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة،

(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٩٨.

إخفائه وإلقائه الشبهة فيه أعظم العقاب، فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة» (٢).

ثم تأتي الفاصلة القرآنية باستفهام توبيخي، يعني: ما الذي أصبرهم، وأي شيء صبرهم على النار؛ حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، ويحتمل أن يكون الاستفهام للتعجب والتقرير بأن الراضي بموجب الشيء لا بد أن يكون راضيًا بمعلومه ولازمه، إذا علم ذلك اللزوم، فلما أقدموا على ما يوجب النار، ويقتضي عذاب الله تعالى مع علمهم بهذه العاقبة المتظرة صاروا كالراضين بعذاب الله تعالى، والصابرين عليه (٣).

إن ما بدر من علماء اليهود بهذه الصفقة الغبية أشبه بكونها «صفقة يدفعون فيها الهدى، ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنها لحقيقة، فقد كان الهدى مبدولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب» (٤).

وفوق كل هذا أعد الله لهم عذابًا كثير الألم (١).

وتبين هذه الآية الكريمة جرأة اليهود في استهانتهم بعذاب النار، الذي أعده الله تعالى لهم، وفي ذلك يقول الإمام الرازي -رحمه الله تعالى-: «اعلم أنه تعالى لما وصف علماء اليهود بكتمان الحق وعظم في الوعيد عليه، وصف ذلك الجرم؛ ليعلم أن ذلك العقاب إنما عظم لهذا الجرم العظيم، واعلم أن الفعل إما أن يعتبر حاله في الدنيا أو في الآخرة، أما في الدنيا فأحسن الأشياء الاهتداء والعلم، وأقبح الأشياء الضلال والجهل، فلما تركوا الهدى والعلم في الدنيا، ورضوا بالضلال والجهل، فلا شك أنهم في نهاية الخيانة في الدنيا، وأما في الآخرة فأحسن الأشياء المغفرة، وأخسرها العذاب، فلما تركوا المغفرة ورضوا بالعذاب، فلا شك أنهم في نهاية الخسارة في الآخرة.

وإذا كانت صفتهم على ما ذكرناه، كانوا لا محالة أعظم الناس خسارًا في الدنيا وفي الآخرة، وإنما حكم تعالى عليهم بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة لأنهم لما كانوا عالمين بما هو الحق، وكانوا عالمين بأن في إظهاره وإزالة الشبهة عنه أعظم الثواب، وفي

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠٦/٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠٦/٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/١٥٨.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٢.

الضلال المبين والبعيد

وصف الله تعالى في القرآن الكريم الضلال بأنه بعيدٌ تارةً، وبأنه مبين تارةً أخرى، وسيتم الوقوف إن شاء الله تعالى هنا على هذه المواضع كما وردت في السياق القرآني؛ لتجلية ما في ذلك من حكم وأسرار أطلعنا الله تعالى عليها، وذلك فيما يأتي:

أولاً: وصف الضلال بالمبين:

وقد ورد ذلك في ستة عشر موضعاً، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَزْرُقُ أَتَتَّخِذُ أَبْنَاءَآءَآلِهَةٍ إِنِّي زُرْتُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أتتنسك لصنم تعبد من دون الله؟ إني أراك وكل السالكين مسلكك تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل أنتم في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلال، وهذا بينٌ واضحٌ لكل ذي عقلٍ سليم^(١).

كما وصف قوم نوح نوحاً عليه السلام بالضلال بالمبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

والقوم هنا هم قوم نوح عليه السلام، والمعنى: إنا لنراك يا نوح في دعوتك إيانا قد صرت من الضالين التائهين عن طريق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٨٩/٣.

الحق، وهكذا حال الفجار، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾ [المطففين: ٣٢]^(٢).

كما وصفت امرأة العزيز بالضللال بالمبين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

إن هذا القول جاء على لسان نسوة وصفاً لامرأة العزيز على حبها ليوسف عليه السلام، وتعلق قلبها به، لكن الله تعالى عصمه منها^(٣).

كما وُصفَ أبو يوسف بالضللال المبين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

والمقصود بالضللال هنا الذهاب عن وجه التدبير في إثارة اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه^(٤).

كما وصف الكافرين بالضللال المبين في قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

والضللال هنا هو ضلال عن طريق الجنة

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٣٢/٣.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٧/٩.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٣٠/٩.

بخلاف المؤمنين^(١).

كما وصف قوم إبراهيم عليه السلام بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

الضلال هو العدول عن المنهج عدولاً ظاهراً لا يخفى على عاقل^(٢).

كما وصف جنود إبليس بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧].

الضلال هنا هو الخطأ البين^(٣).

ويتبين - بعد الرجوع إلى تفسير بعض النماذج القرآنية التي وصفت الضلال بالمبين - الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: إن السواد الأعظم من الآيات التي وصفت الضلال بالمبين مكية؛ حيث بلغ عدد المكيات منها أربع عشرة آية، في مقابل آيتين مدنيتين.

الملاحظة الثانية: إن الضلال المبين الذي ورد في المواضع التي ذكر فيها تحتمل المعاني الآتية:

١. البين الواضح لكل ذي عقل سليم.
٢. الخطأ البين.
٣. الظاهر الذي لا يخفى على عاقل.
٤. الخسران الظاهر.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٨.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٠٨.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٠.

٥. الغواية الظاهرة.

٦. الضلال الظاهر الواضح.

٧. لا شبهة فيه.

٨. ذهابٌ عن الحق.

ولا شك أن جميعها تدور حول المعنى العام للضللال، الذي هو عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، مما يبين أن الضلال له وجوه متعددة، متفرعة عن المعنى العام له؛ لتعالج الموقف المناسب بمعنى يختص به.

ثانيًا: وصف الضلال البعيد:

وقد ورد ذلك في سبعة مواضع، منها: وصف الله تعالى الكافرين بالضللال البعيد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

أي: إن الذين كفروا بالله تعالى صدوا عن سبيله قد بعدوا عن المنهج بعدًا عظيمًا شاسعًا^(٤).

كما وصف الله تعالى الكافرين أيضًا بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

الضلال هنا هو عدولٌ عن طريق الحق، وقيل: يجوز أن يراد بالضللال البعيد، أي: ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأن الضلال يبعد عن

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٦.

الطريق^(١).
 كما وصف الله تعالى قرين السوء بالضلال البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتَهُ وَلَكِنَّ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

الضلال ثابت للإنسان الضال بالأصالة ملازم لتكوينه، والبعيد مستعارٌ للبالغ في قوة النوع حدًا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة، كما لا تبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي: قديم أصيل، والمعنى: إن تمكن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه^(٢).

ويتضح هنا أن مصطلح الضلال البعيد في المواضع السابقة التي ذكر فيها يعني أحد خمسة احتمالات:

❁ إما أي ذي بعدٍ عن الحق والطريق المستقيم.

❁ وإما أنه ضلال قديم أصيل.

❁ وإما البعد عن الصواب.

❁ وإما الخروج عن الهدى والبعد عن القصد.

❁ وإما البعد عن الحق بعدًا عظيمًا.

ويتضح أيضًا أن للضلال البعيد أسبابًا، منها: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله تعالى والكفر به،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١٤.

وجريهم، حيث كان القوم يتوارثون عمليات التضليل، والتكذيب لنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾، أي: أنهم يكونون في علمك كذلك، أو أنهم سيصيرون كذلك، ولا شك أن هذا الطلب من نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم يحمل معنىً عظيمًا في الرحمة بذرية القوم التي ستأتي تباعًا إن لم ينالوا عقابهم؛ حتى لا تحاسب هذه الذرية على ممارسات التضليل^(٢).

٢. حرص أهل الكتاب على التضليل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن فريقًا من أهل الكتاب كانوا يتمنون إضلال المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم، بإلقاء الشبه التي توهن الاعتقاد^(٣)، والحال أن وبال ضلال هؤلاء المضلين عائدٌ عليهم، وأما نفس الضلال فمحالٌ؛ لأنهم يضلون المؤمنين بالانتقال من الإيمان إلى الكفر، وهم لا يعرفون الإيمان قط^(٤).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦٥٩/٣٠.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٨١.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة ٣٧١/١.

أنواع الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الضلال منه ما كان عن عمدٍ يحاسب عليه المرء عند الله تعالى، ومنه ما كان عن جهلٍ ونسيان، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولاً: ضلال التعمد:

وقد أخذ هذا الموضوع مساحةً في الخطاب القرآني، ومن أمثلته:

١. ضلال قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

أي: إنك إن تركهم دون أن تهلكهم، فأبقيت أحداً منهم حيًا، سيدعون عباد الله تعالى المؤمنين إلى الضلال، ولا يلدوا إلا كفرًا فجرةً من أمثالهم، وهذا تعليلٌ لدعائه عليهم جميعًا بالهلاك^(١).

فسيدنا نوحٌ صلى الله عليه وسلم عرف أن قومه لن يؤمنوا، بل سيزدادون في الكفر، من خلال أمرين: الأول: النص القرآني، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

والآخر: الاستقراء؛ فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، تعرف على طباعهم

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٥٤٦/٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢٥/١٥.

٣. الوصف بالضلال لمن أمعن في الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ومقصود هذه الآية فيه «أربعة تأويلات: أحدها: أنهم اليهود كفروا بالمسيح، ثم ازدادوا كفرًا لمحمد، لن تقبل توبتهم عند موتهم، وهذا قول قتادة.

الثاني: أنهم أهل الكتاب لن تقبل توبتهم؛ لذنوب ارتكبوها مع الإقامة على كفرهم، وهذا قول أبي العالية.

الثالث: أنهم قوم ارتدوا ثم عزموا على إظهار التوبة على طريق التورية، فأطلع الله نبيه على سريرتهم، وهذا قول ابن عباس.

الرابع: أنهم اليهود والنصارى كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا إلى حضور آجالهم، وهذا قول الحسن^(١).

والذي يترجح من خلال السياق القرآني أن رأي الحسن هو الأقرب إلى الصواب؛ ولذلك وصفوا بعد كل ما صدر منهم بأنهم هم الضالون^(٢) الذين عدلوا عن المنهج الحق عمدًا وظلمًا.

ثانيًا: ضلال الجهل والنسيان:

ورد ضلال الجهل والنسيان في القرآن الكريم من خلال جوانب عديدة، منها:

١. الضلال في حق النبي صلى الله عليه وسلم معناه الجهل بالأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

ويرجح أن الضلال هنا يعني أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ضالًّا جاهلًا عن علم الشرائع والأحكام في دين الله تعالى، فهده الله تعالى إلى ذلك.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]^(٣).

٢. تعليم الله للمؤمنين شرائعهم حتى لا يضلوا.

قال تعالى: ﴿يَسِّرْهُ لَكُمْ أَنْ تَفْهَمُوا وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ١٧٦].

إن الله تعالى يذكر في هذه الآية الكريمة سبب تولي القرآن الكريم لبيان أحكام الميراث، وهو ألا يذهب الناس إلى طرق

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣٠٢/١.

(٣) انظر: غاية الأمانى، شهاب الدين الشافعي ص ٤٠٤.

فإن هذه الآية جاءت في معرض الحديث عن ابتلاء أصحاب الجنة، حيث اجتهدوا في اجتماعاتهم السرية على أن يمنعوا الفقراء من حقهم في خيرات جنتهم، وتعاهدوا فيما بينهم أن يأتوا صباح اليوم التالي لمؤامرتهم، فيقطعوا جميع الشمار ويبيعوها أو يدخروها؛ حتى لا ينتفع الفقراء من هذا الخير، فأحرقت بأمر الله تعالى ليلاً، فلما رأوها في اليوم التالي قالوا: إنا لضالون عن الطريق، من قوة الصدمة، كأنهم لما رأوا جنتهم محترقة سبق إلى ذهنهم أنها ليست هي، وأنهم ضلوا الطريق، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: بل نحن من حرم خيرها؛ لشؤم عزمنا على البخل، وبسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، ولخساستنا وخباثة نفوسنا، وبعدما بان لهم ذلك، قال أعدلهم رأياً وعقلاً على وجه التقريع والتشنيع لإخوانه: ألم أقل لكم وقت مشاورتكم على حرمان الفقراء هلا تذكرون الله تعالى بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء^(٤).

٤. ضلال المرأة بنسيانها.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة:

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/٣٣٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/٣٢٥.

ضالة بأمور، منها إهمال الميراث جملةً، وألا يعطوا أحداً من الورثة شيئاً، وجعل الحرية للمورث يوصي بماله لمن يشاء من غير قيد، وفي ذلك ضلالٌ أي ضلال، إذ يترك ورثته ضياعاً، ويعطي المال غيرهم، وحرمان من يشاء المورث وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة^(١).

وتأتي هذه الآية الكريمة في فاصلتها لتبين أنه تعالى يبين أحكامه التي يحتاجونها، ويشرحها فضلاً منه وإحساناً؛ لكي يهتدوا ببيانه، ويعملوا بأحكامه، ولأن لا يضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلهم وعدم علمهم^(٢).

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)^(٣).

٣. الشعور بالضلال عند الصدمة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾

[القلم: ٢٦].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/٢٠٠١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر ٢/٩٧٥، رقم ١٣٣٧.

أسباب الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أسباب الضلالة، ومنها:

أولاً: مخالفة أمر الله تعالى ومعصيته:

ورد الحديث عن مخالفة أمر الله ومعصيته واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقد وردت هذه الآية بعد الآية التي سميت آية النساء؛ لما ثبت أن أم عمارة الأنصارية أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية^(٣).

وتأتي هذه الآية لتبين أنه ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى رسول الله أن يختار رأياً غير ما قضاه الله ورسوله^(٤).

ولما كان الإيمان قد يدعى كذباً لخفاء

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب ٥/٢٠٧، رقم ٣٢١١.

وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٧/٢١١.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/١٠٤.

ووجه قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، أنه لما كان الضلال سبب الإذكار، وهو متقدم عليه صار لتعلق كل واحد منهما بالآخر، أي: فتذكرها إن ضلت^(١).

٥. ضلال المسلمين عن معرفة أحكام الدين قبل الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّاكِينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

أي: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، فما دام الأمر كذلك فاذكروا الله تعالى بتوحيده وتعظيمه كما ذكركم بالهداية، وما كنتم من قبله إلا من الضالين، والضلال هنا بمعنى الجهل بالمعارف الحقيقية^(٢).

وإن الشاهد هنا هو فاصلة الآية التي تطلب من المسلمين أن يذكروا الله تعالى؛ لهدايته لهم الإرشادية لأحكام الدين بعد هدايته التوفيقية للإسلام.

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/٥٩٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/١٦٣، الوجيز، الواحد ص ١٥٧.

المنافقين، بأنهم أقسموا بالله طاقة ما قدروا، لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسأنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فيقول الله تعالى لهم: لا تقسموا، فإن الأولى بكم من إيمانكم أن تطيعوا الطاعة المعروفة، والقول المعروف، بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين، والمعنى: قد عرفت طاعتكم، وهي الكذب والتكذيب، أي: المعروف منكم الكذب دون الإخلاص، فالله تعالى خير بما تعملون من طاعتكم بالقول، ومخالفتكم بالفعل^(٤).

لأن طاعة الله وطاعة الرسول بإخلاص الطاعة، وترك النفاق، فإن تولوا فإنما على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما حمل من تبليغ الرسالة، وعليهم ما حملوا من الطاعة له، ثم يأتي هذا الشرط وهو إن تطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم تهتدوا، وما على الرسول إلا التبليغ المبين^(٥).

وقد سبقت الإشارة إلى أن الهداية تأتي في مقابل الضلالة بكل جوانبها، ومن ثم فإن الاستدلال بهذه الآية يكون من باب المخالفة.

وقد كان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة،

به، قال: ﴿لَمُؤْمِنٍ﴾ أي: عبد الله بن جحش وزيد، ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، أي: زينب بنت جحش وغيرها، فعلق الأمر بالإيمان؛ إعلامًا بأن من اعترض غير مؤمن، وإن أظهر الإيمان بلسانه^(١).

والخيرة هنا تعني أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعًا لرأيه عليه السلام، واختياره، والمقصود هنا كل مؤمن وكل مؤمنة؛ لوقوع ذلك في سياق النفي^(٢).

إن هذه الآية تبين أن من يعص الله ورسوله في أمر من الأمور، ويعمل برأيه، فخالف الكتاب والسنة، فقد ضل طريق الحق، وعدل عن الصراط المستقيم؛ فهو بين الانحراف عن سنن الصواب^(٣).

ثانيًا: عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد برز عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

تأتي هذه الآية في معرض الحديث عن

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٩٦/١٢.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٩٦/١٢.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٣٥٤/١٥.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١٧٧/٧.

(٣) انظر: مراحيب لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢٥٤/٢.

ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولاً
وفعلًا نطق بالبدعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن
تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(١).

ثالثًا: اتباع الهوى:

لقد ورد اتباع الهوى في آيات عديدة،
منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُنتُمْ
قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾
[الأنعام: ٥٦].

أي: قل إنني صرفت وزجرت بما نصب
لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر
التوحيد عن عبادة ما تعبدون من دون الله
تعالى، أو ما تسمونها آلهة، وتأتي ﴿قُلْ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيدًا لقطع أطماعهم،
وإشارة إلى علة الامتناع عن متابعتهم،
واستجهاً لا لهم، وبياناً لمبدأ ضلالهم، فإن
المطلوب لمن تحرى الحق أن يتبع الحجة
ولا يقلد^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَن كَثِيرًا لَّيْضُلُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ
يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ إِنَّا رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾
[الأنعام: ١١٩].

أي: وإن كثيراً من الكافرين ليعدلون
عن المنهج المستقيم، متسلحين بما تهووا
أنفسهم من تحيل الميتة وتحريمها بغير

علم يعتمدونها في ذلك، ثم تأتي الفاصلة
القرآنية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾،
أي: بالمتجاوزين حدودهم، الذين تسلحوا
بالهوى^(٣).

وقال تعالى: ﴿يٰۤاٰدَمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
فِى الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ
اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

أي: يا داود صلى الله عليه وسلم إنا
جعلناك خليفة في الأرض لتدبر الناس بأمر
نافذ الحكم فيهم، حيث يأمر الله تعالى أن
يحكم بين الناس بالعدل، وألا يميل مع ما
يشتهي إذا خالف أمر الله تعالى، فيضله
ذلك الهوى عن دين الله تعالى وطريقه
جل جلاله، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين
أن الذين تركوا الإيمان بيوم الحساب،
فضلوا عن هذا الدين لهم عذاب شديد يوم
القيامة^(٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوٰىهُ
وَأَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلَىٰ عَمِرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمِيعٍ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْۢ بَعْدِ اللّٰهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُوْنَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً
فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، فيكون بذلك
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلى والسيوطي
ص ١٨٣.

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٩.

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٦٤.

وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِي لَهَبٍ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَةِ أَبِي لَهَبٍ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوُّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

إن هذه الآية تبين أن نبينا موسى صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغ أشده واستوى وأوتي من الحكم والعلم الشيء الكثير - وأن هذا جزاء كل محسن في طاعته - قد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، إما وقت مقولته، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتخاصمان ويتضاربان، ﴿هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَبِي لَهَبٍ﴾ من بني إسرائيل، ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من القبط، ﴿فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَةِ أَبِي لَهَبٍ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾؛ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل.

واستغاثه لموسى صلى الله عليه وسلم دليل على أنه صلى الله عليه وسلم بلغ مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان، فوكز الذي من عدوه استجابةً لاستغاثة الإسرائيلي، فأماته من تلك الوكرة؛ لشدتها وقوة موسى صلى الله عليه وسلم، فندم موسى عليه السلام لما جرى منه، وقال هذا من تزوين الشيطان، بوسوسته، فلذلك أجريت ما أجريت، بسبب عداوته البيئية،

قد استحق إضلال الله تعالى له على علم منه، بأنه يضلله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أنه يضلله الله بعد بلوغ العلم إليه، ولا شك أن الثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس^(١).

رابعاً: اتباع الشيطان:

لقد ورد اتباع الشيطان واضحاً في آيات عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٣، ٤].

حيث جاءت هذه الآيات إثر بيان عظيم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها، حيث بينت أن بعض الناس من يجادل في شأن الله تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل ملابساً بغير علم، أي: دون دليل من القرآن الكريم أو من السنة النبوية، ويتبع فيما يتعاطاه من المجادلة، أو في كل ما يأتي، وما يذر من الأمور الباطلة، التي من جملتها اتباع كل عاتٍ متمرد متجرد للفساد، والمراد هنا إما رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر؛ فهم شياطين الإنس، وإما إبليس وجنوده؛ فهم شياطين الجن^(٢).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٦٨/٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩٢/٦.

وحرصه على الإضلال^(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

أي: ألم تر يا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن والتوراة، ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن؛ لتأكيد العجيب من حالهم، وتشديد التوبيخ والاستقبح؛ لبيان كمال المبينة بين دعواهم المقتضية حتمًا للتحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الداعي إلى الطغيان، بالحكم على خلاف المنزل إليك، والمنزل على من قبلك، فيعصون الله تعالى، ويطيعون الشيطان، ويريد الشيطان جنًا كان أو إنسانًا أن يضلهم ضلالًا بعيدًا عن الحق والهدى^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْرَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُم مَّا أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْيَتَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُم مَّا خَلَقَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١٩].

أي: لأحرفهم عن دين الله تعالى إلى دين شرعه لهم إبليس كهيئة البحائر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٣.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٩٣/٣.

والسوائب^(٣)، وقيل: لأضلنهم عن الحق، ولأمنينهم الأمانى الباطلة، كطول الحياة، وألا بعث ولا عقاب، ومعنى ﴿فَلْيُبَيِّنْ لَهُم﴾: يشقون آذان الأنعام؛ لتحريم ما أحل الله تعالى^(٤).

خامسًا: اتباع الكبراء والرؤساء:

قد برز اتباع الكبراء والرؤساء واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

تبين هذه الآية الكريمة أن الكبراء والسادة هم الذين لقنوا الكافرين الأتباع، والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر؛ لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة، وقد قرئ «سادة»؛ و«سادات» على جمع الجمع -كما ورد عن ابن عامر الشامي-؛ للدلالة على الكثرة، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين اعتراف الأتباع بأن الكبراء والسادة الذين هم رؤسائهم في الشرك والشر، صرفوهم عن طريق الإسلام والتوحيد، بما زينوه لهم من الكفر والشرك، ولا شك أن حال الأتباع حينما قالوا كانت معاناة، وقسوة، وشدة في العذاب في النار^(٥).

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الكفار

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦٨٨/٢.

(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥٦٢/١.

(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢٤٤/٧، التفسير المظهر، ٣٨٦/٧، الصحيح المسبور، حكمت ياسين ١٤٦/٤.

ولقد ضل عن قصد السبيل قبلهم من الأمم الخالية^(٢).

وبعد كل ما تقدم من بيان تقليدهم لأبائهم في الكفر، يتضح أنهم عريقون في الضلالة، وهم في الوقت ذاته مقلدون، لا يفكرون ولا يتدبرون، بل يطيطون معجلين يقفون خطي آبائهم الضالين غير ناظرين، ولا متعقلين، وقد كان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ^(٧٢) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢-٧٣]^(٣).

ينادون الله تعالى بصفة الربوبية؛ لأنهم يتحننون إليه، ويتوسلون إليه تعالى؛ لعل هذه الغمة تذهب عنهم، وتبين هذه الآية الكريمة أن الأتباع يقولون عن السادات والكبراء بأنهم أضلّوهم السبيل؛ لبيّنوا أنهم كانوا الحريصين على الإسلام، لكن قادة الكفر قد نصبوا المصائد والفخوخ والمشائق؛ حتى يحرفوهم عن الحق.

سادساً: اتباع الآباء:

وقد ورد اتباع الآباء واضحاً في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ مِنْهَا فَمَا لَوْ كُنُوا عَاكِفِينَ لَخَبِطَ الْبَطُونُ﴾ ^(٣٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخَبِرَ وَشَوَّكَ يَنْ خَيْمٍ﴾ ^(٣٧) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخَبِرَ وَشَوَّكَ يَنْ خَيْمٍ﴾ ^(٣٨) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَخَبِرَ وَشَوَّكَ يَنْ خَيْمٍ﴾ ^(٣٩) [الصافات: ٦٦-٦٩].

حيث إن الآية التاسعة والستين جاءت تعليلاً بما جازى الله تعالى الكافرين به من العذاب، وإيداءً للمناسبة، بينه وبين جرمهم، فإن جرمهم كان تلقياً لما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وشعبه، بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العقل، فكان جزاؤهم أنهم يطعمون طعاماً مؤلماً، ويسقون شراباً قذراً، بدون اختيار منهم، كما تلقوا دين آبائهم تقليداً واعتباطاً^(١).

فإن أولئك القوم وجدوا آباءهم على ضلالة، فهم على آثار آبائهم يسرعون،

(٢) انظر: الموسوعة القرآنية، الأبياري ٥٠/١١،

أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص ٥٤٧.

(٣) انظر: في ضلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٩٩١.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢٦/٢٣.

مجالات الضلال

ويقصد بمجالات الضلال هنا تلك الجوانب التي يقع فيها انحراف وضلال، وهي:

أولاً: العقائد:

ستتناول هنا بيان ضلال الكافرين عن اتباع الدين، في أصوله ومعتقداته؛ حيث إن القرآن الكريم بين ضلالهم من خلال جوانب عديدة، منها:

١. ضلالهم بالكفر بكل الدين مجمله ومفصله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والضلال هنا بعدد عن الحق، وقد جاء في رأس هذه الآية أمرٌ للمؤمنين بأن يؤمنوا بالله تعالى، أي: يثبتوا على الإيمان، كأن تقول للرجل الواقف: اثبت واقفاً، وقال البعض: هو خطابٌ للمنافقين، الذين آمنوا باللسان أن يؤمنوا بالقلب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خطابٌ لأهل الكتاب، أي: أنهم كما آمنوا بموسى وعيسى -عليهما السلام-، يؤمنون في هذه الآية بأن يؤمنوا

بمحمد، والكتاب الذي نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل، أي: كل الكتب المنزلة من قبل القرآن^(١).

٢. الضلال بعبادة غير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته عند رجوع موسى صلى الله عليه وسلم إليهم، واستسلموا لموسى صلى الله عليه وسلم، وحكمه فيهم، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله تعالى، وكفروا بربهم، عندها قالوا تائبين إلى الله تعالى، منيبين إليه من كفرهم به: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

وفي هذه الآية دليلٌ على أن بني إسرائيل الذين اجتازوا البحر مع نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، ونجوا بفضل الله تعالى من فرعون وقومه، قد ضلوا حينما أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وبعد تلبسهم

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤٩٠/١، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤١٣/١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١٩/١٣.

يسمعون، ولا يفهمون؛ إذ إنهم غافلون^(١).
وقد وردت آية أخرى في السياق نفسه
تبين أن الذي يختار الكفر بعد إيمانه فهو
ضالٌّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْدَلِ الْكُفْرَ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:
١٠٨].

حيث قيل في معنى هذه الآية: إنه
من يتبدل الشدة بالرخاء فقد عدل عن
السبيل^(٢)، وقيل: من يسأل النبي صلى الله
عليه وسلم عما لا يعنيه بعد وضوح الحق
فقد ضل سواء السبيل^(٣)، والراجح أن الكفر
هنا ما هو مخرجٌ من الملة، وإن كان السياق
القرآني حملاً للمعاني السابقة.

٣. ضلال الكافرين في يأسهم من
رحمة الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

حيث إن نبينا إبراهيم صلى الله عليه
وسلم حين طلب من ضيوفه الملائكة بعدما
بشروه بغلام عليم - وهو النبي إسحاق
صلى الله عليه وسلم - أن يبينوا له بأي
شيء يشرون؟ فقالوا له: بشركنا بالصدق،
فلا تكن من اليائسين من رحمة الله تعالى،
فأجابهم بسؤال فيه دهشة واستغراب، ومن

- (١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/٩.
- (٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم
٢٠٤/١.
- (٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/١٩٣.

بعبادته أرادوا أن يرجعوا إلى الله تعالى
تائبين منيين، وقبل أن يقبل الله تعالى
توبتهم رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً؛
لأن الله تعالى كان قد أخبره أن قومه قد
فتنوا، وأن السامري قد أضلهم؛ فكان حال
رجوعه حال غضبٍ وأسف، فلا تنفع بني
إسرائيل الشرائع ما داموا قد كفروا بالعقائد؛
ولذلك ألقى الألواح وفعل ما فعل بأخيه
هارون، إذ إنه أوصاه قبل أن يذهب إلى ربه
أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين، فابتدره
أخوه هارون صلى الله عليه وسلم قائلاً له:
﴿إِنَّ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي
فَلَا شَيْئَ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وعندها استغفر موسى صلى الله عليه
وسلم له ولأخيه هارون صلى الله عليه
وسلم وطلب أن يدخل في رحمة الله تعالى.
وقد ورد في آياتٍ أخرى أنه ليس هنالك
أضل ممن يدعو من دون الله تعالى من
لا ينتصر ولا يستجيب، وذلك مثل قوله
تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ
غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

والمراد: ليس هناك أضل ممن يقف
أمام الأصنام والأوثان، ويطلب منهم
الرزق والخير، وما شابه؛ لأنهم لا يمكن
أن يستجيبوا له إلى يوم القيامة، فهم لا

الذي هو عبادة الشيطان، فكيف تصرف عقولكم إلى عبادة من لا يرزق ولا يحيي ولا يميت؟^(٣)

ثانيًا: الأحكام الشرعية:

نتناول هنا بيان ضلال المضلين في الأحكام الشرعية، التي تعتبر المفصل للعقائد، التي سبق ذكر بعضها، ومن هذه الأحكام الشرعية: العبادات، والمعاملات. وسيتم الوقوف على كل واحد من هذين الفرعين، بما يعالج هذا الموضوع -إن شاء الله تعالى-.

أما العبادات: فقد وردت آية توضح ضلال المتمسكين بغير الله تعالى، وهم يظنون أن هذا خيرٌ لهم عند الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ بِاللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

أي: ومن شأن المعبود القدرة على النفع والضرر، وليس هذا متوفرًا لدى الأوثان، التي هي جمادٌ لا تقدر على فعل أي شيء، فهلا تخبرون الله تعالى بكونهم شفعاء عنده، وهذا إنباء بما ليس بمعلوم الله تعالى، فإن قيل: كيف أنبأوا الله بما لا يعلم؟

يأس من رحمة ربه إلا الضالون الجاهلون الذين خسروا الدنيا والآخرة!؟ حيث إن القنوط من رحمة الله تعالى كبيرة، سيما إذا كان من جهة الولد^(١).

٤. حكم الله تعالى على الضالين بأنهم لن يهتدوا.

قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

أي: إن تحرص يا محمد صلى الله عليه وسلم على هدى هؤلاء المشركين على الإيمان بالله تعالى، واتباع الحق، فإن من أضله الله تعالى لا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به؛ لتتم الحجة، ثم إنهم ما لهم من ناصر ينصرهم من الله تعالى إذا أراد عقوبتهم^(٢).

٥. المفاصلة العقدية بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي أَصْرِفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

أي: هذا الدين كله الالتزام به هو الحق، وليس هؤلاء الذين جعلتموهم معه شركاء، فماذا بعد عبادة الله تعالى الحق إلا الضلال

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٥٨، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٠٢.

(٣) انظر: الوجيز، الواحد ص ٤٩٧.

عنه قبل إنزال الشرائع الحقة؛ لأنه لا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسليّة للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك، وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستند بمعرفته العقل^(٣).

ثم وردت آية أخرى في سياق الضلال في المعاملات، تبين العلاقة بين الناس بعضهم لبعض، بين فريق المؤمنين المهتدين، وبين فريق الكافرين الضالين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي: الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها، واحفظوها من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب، فواجب عليكم أنفسكم^(٤). والضلal هنا ليس ضلال الكفر، ولكن في الضلال عن الحق في الإسلام؛ لأن من المسلمين من يقصرون فيجب دعوتهم إلى الحق، وإذا لم يلتزموا فعندها لا يضر من دعاهم هذه الضلالة التي هم فيها^(٥).

وقد وردت آية كريمة تبين أن المشركين حينما أقيمت عليهم الحجة بأمرهم بالإنفاق

فالجواب هو أن هذا تهكم بهم، وبما ادعوه من الحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنه الذي أنبأوا به باطل؛ فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه^(١).

وأما المعاملات: فقد ورد ذلك في آيات تبين أن العلاقة بين الإنسان وربه ليست علاقة ضلال؛ لأن الله تعالى يبين الحق من الباطل؛ فإما أن يشكر الإنسان فيهدي، وإما أن يكفر فيضل، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ تَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

هذه الآية من تنمة ما تقدم من تأكيد مباينة المشركين، والبراءة منهم، وترك الاستغفار؛ وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون، ودلالته إياهم على الصراط السوي، فضلوا عنه فأضلهم الله، فاستحقوا عقابه، إنه تعالى عليم بجميع الأشياء^(٢).

وليس من قبيل العادة في القرآن الكريم أن يصف الله تعالى المشركين بأنهم ضالون عن طريق الحق، وأن أحكامه تجري عليهم بعد أن هداهم للإسلام؛ حتى يبين لهم بالوحي صريحاً أو دلالة ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين، فلا يتزجر أحد عما نهى

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم أبو السعود ١٠٨/٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ٨٧/٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٤٤٨/١٢.

(٥) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمين ٥١/٢.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٤/٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٥١٧/٥.

في سبيل الله تعالى توطئة لأمرهم بالإسلام إذا بهم يقلبون الحق ضلالاً، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فإن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن المشركين الذين من الكفر ما بلغوا؛ حيث تبين أنهم إذا قيل لهم من قبل المؤمنين الداعين إلى الله تعالى: أنفقوا مما منحكم الله تعالى من الرزق، وهذا لإقامة الحجة عليهم؛ لبيان ضلالهم؛ إذ إنه ليس بعد الكفر ذنب، حينها يردون على المؤمنين بقولهم: إذا لم يشأ الله أن يطعمهم لم نطعمهم؟ ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن المشركين وصلوا إلى عمى عن الحقيقة؛ حتى قلبوا الموازين فقالوا للمؤمنين: ما أنتم إلا غارقون في الضلال البائن بينونة واضحة^(١).

ثالثاً: الأخلاق:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن أهل الضلال لازمهم صفة البعد الكامل عن الأخلاق، كما أن القرآن الكريم بين أن الدعاة استخدموا مصطلح الضلالة في دعوتهم لأقوامهم، وسيتم الوقوف -إن شاء الله تعالى- هنا على بعض النماذج القرآنية

لكل نقطة من النقطتين السابقتين، وذلك فيما يأتي:

١. استهزاء أهل الضلال بالرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يبين الله تعالى في هاتين الآيتين أن المشركين إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم لا يتخذونه إلا هزواً، متسائلين سؤالاً فيه عدم تقدير، أهذا الذي بعث الله رسولاً، ثم يتمادون في قلة أدبهم، وبشاعة ألفاظهم، وزيادة تعديهم على حدود الإنسانية، بقولهم: لقد كاد محمد صلى الله عليه وسلم أن يصرفنا عن طريق الحق، وعن عبادتنا، ولكننا حبسنا أنفسنا على عبادتها، ويبين الله تعالى أنهم سوف يعلمون حين يرون العذاب -وكانت يوم بدر- من أضل ديناً؟ أهم أم محمد صلى الله عليه وسلم^(٢)، ويجوز أن يكون العذاب في الآخرة عند الله تعالى^(٣).

٢. استخدام مصطلح الضلال في دعوة

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٥/١٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٦١/٣.

(١) انظر: المصدر السابق ٤٦/٤.

مظاهر الضلال

إن الضلال بكل جوانب معناه الشامل تتحدد له مظاهر، يحكم من خلالها على أن هذا المظهر دالٌّ على الضلال، وسيتم هنا - إن شاء الله تعالى - توضيح لكل مظهر على حدة، من خلال الآتي:

أولاً: الشرك بالله تعالى:

إن الشرك بالله تعالى من الأمور التي يصل من خلالها الإنسان إلى الضلال الكبير، ويمكن توضيح هذه الظاهرة من خلال ما يأتي:

١. تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله يؤدي إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

إن كفار قريش وأمثالهم ممن هم على طريقتهم نفسها قد جعلوا لله تعالى أمثالاً في العبادة، أو في التسمية، وكل هذا لأجل الإضلال عن طريق الحق (٢).

وإن الإضلال عن سبيل الله يعني الإضلال عن التوحيد، حيث يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم على

الدعاة لأقوامهم.

وقد ورد ذلك في حق نبي الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

أي: «قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت، أي: قتلت تلك النفس التي قتلت إذاً وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله علي» (١).

ولا شك أن هذا المصطلح يحمل بين جنباته تأديباً عظيماً من النبي موسى صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنه حسم النقاش بكونه فعل تلك الفعلة، وكان من الجاهلين عن معرفة ذلك الحكم، فهو يبين أن عذره فيما فعل كونه جاهلاً، ولم تأت الرسالة بعد.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين أن العبد الصالح الذي انتصر للرسالة الثلاثة الذين كذبهم قومهم، قال لقومه: إن اتخذت آلهة من دون الله تعالى إني إذا لمن المنحرفين عن المنهج، والكافرين بالله، حيث قال تعالى: ﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤].

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٧٣.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٠.

ثانيًا: عبادة الأصنام والأوثان:

وقد برز ذلك واضحًا في آيات، منها:
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَزِدُّكَ إِلَهًا أَفْنَاءً مَا أَتُخَدُّ أَصْنَامًا ۚ إِنَّكَ رَافِقٌ غَافِلٌ ۖ فَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي هَذَا الْبَلَدِ ۚ إِنَّكَ كَادِحٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُجْعَلَ لَهُمْ آلَافٌ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُ ۚ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أي: اذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين تبين لك بالحجج بطلان شركهم، حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه شركهم وعائباً عليهم جميعاً عبادة الأصنام دون الله تعالى، ثم قال له: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال عن الصراط المستقيم؛ فهو ضلالٌ بين لا شبهة فيه للهدى^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا ۚ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وهذا دعاء من نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم لله تعالى أن يجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، وأن يباعده الله تعالى وبنيه عن عبادة الأصنام، ثم تعلل الآية الثانية بأن هذه الأصنام أضلت عن الطريق المستقيم كثيرًا من الناس، وتأتي الفاصلة القرآنية لتدل على تأدب نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم في الطلب من الله تعالى لصالح بنيه، حيث

(٥) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦٨.

سبيل التوبيخ بأن يتمتعوا بشهواتهم وعبادة الأوثان، والأمر يحمل معنى التهديد أيضًا، إذ أننا بأن المهدد عليه كالمطلوب للإفضاء إلى المهدد به، وأن الأمرين كائناتان لا محالة، ولذلك علله بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من أمر المطاع^(١).

٢. الإشراف بالله تعالى ضلالٌ بعيد.
قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

هذه الآية تعقيب على الآية السابقة؛ للإشارة إلى أن المراد باتباع غير سبيل المؤمنين اتباع سبيل الكفر، من شرك وغيره، فعقبه بالتحذير من الشرك^(٢).

ومعنى الآية إذا: فقد سلك غير طريق الحق، وضل عن الهدى، وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدارين^(٣)، وإن كل ذنب قابل للغفران إلا الإشراف بالله تعالى، وعبادة غيره، ومعاندة رسول الله الحق، فإن الله تعالى من شأنه المغفرة إلا أن يشرك في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء^(٤).

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٠٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٤.

(٤) انظر: المنتخب، لجنة من علماء الأزهر ص ١٣٠.

الله عليه وسلم، حينما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبين لهم خوفه وشفقته عليهم من العذاب الأبدي، والشقاء سرمدي؛ لاستكبارهم وعدم انقيادهم له، وقدحهم فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال الذي هو عدول عن الطريق، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتى جعلوه ضلالاً مبيناً واضحاً لكل أحد^(٣).

٢. دفع شبهة الضلال والإغواء عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢].

فبعد أن أقسم الله تعالى بالقرآن الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وعبر عنه بالنجم بين في هذه الآية أن النبي محمداً الذي أنزل عليه القرآن، والذي هو من قریش التي تعرف نسبه، وشرفه فهو ليس بضال ولا بمجنون، وليس بغوي يعتقد باطلاً، بل هو رشيد مرشد، دالٌّ على الله تعالى، لم يتكلم بالقرآن عن هوى نفسه، ولا عن رأيه أصلاً، فما القرآن إلا وحي من الله تعالى، يجدد إبحاؤه إليه صلى الله عليه وسلم وقتاً بعد وقت^(٤).

ولا شك أنهم قصدوا الاستهزاء بالرسول

يقول: من اتبع منهجي التوحيدي لله فهو مني، ومن عصاني بضلاله أو إضلاله عن الدين فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم^(١). وقال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

أي: في ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد، أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشركتم وإياهم في الضلال الواضح البين لأي أحد^(٢).

ثالثاً: الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الكفار بلغوا من ضلالهم ما جعلهم يستهزئون برسولهم، وهناك نموذجان من هذا الاستهزاء:

١. الاستهزاء بنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

حيث رد الكفار - وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، حيث سموا بالملأ؛ لما يلتبس عندهم من المعروف وجودة الرأي؛ أولأنهم يملؤون العيون أبهة- على نبيهم نوح صلى

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٢٩٢.

(٤) انظر: مراح ليبد، محمد بن عمر الجاوي ٤٦٣/٢.

صلى الله عليه وسلم، لكن هذه الآية جاءت لتدفع هذا الاستهزاء.

وقد سبقت الإشارة إلى آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِّنْ أَصْلٍ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يقول المشركون إذا رأوك رأي العين فيتخذونك مهزوءاً به: هل هذا الذي بعثه الله رسولاً؟! فقد قارب أن يضلنا عن عبادة الله، ولو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أنه سوف يعلم المشركون حين يأتيهم عذاب الله تعالى من أخطأ طريقاً^(١).

رابعاً: تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله:

وقد ورد ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لِيُوْاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوَاءٌ أَعْمَلُوا أَمْ لَمْ يَفْعَلُوا لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

فبعد أن بينت الآيات السابقة بعض أحكام الأشهر الحرم، وأنها أربعة، يوم

خلق الله تعالى السماوات والأرض، وأن الله تعالى معيته مع المتقين، تبين هذه الآية الكريمة بأسلوب الحصر أن تأخير المحرم إلى صفر زيادة مبالغة في الكفر والإثم^(٢)؛ فإن هذا التأخير عدوٌّ عن المنهج الحق، من قبل الكافرين، حيث يحلونه إذا قاتلوا فيه، ويحرموا مكانه صفرًا، وأما إذا لم يقاتلوا فيه حرموه^(٣).

وكأنهم يستهزئون بهذه الأشهر الحرم؛ فإن الذي التزموا به فقط هو موافقة عدة هذه الأشهر، وهي أنها أربعة خلال العام، فالمصيبة أنهم أحلوا ما حرم الله تعالى، وقد زين لهم عملهم السيئ، ثم تأتي الفاصلة لتقرير أن الله تعالى لا يكتب الهداية التوفيقية للقوم الذين وصلوا إلى مرحلة الكفر الخارج عن الملة، والمقصود هنا كفار قريش، رغم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

خامساً: القتل:

لقد برز ضلال القتل واضحاً في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فقد بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٥٧/٢.

(٣) انظر: الوجيز، الواحد ص ٤٦٣.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤٤٧/٣.

وفي هذا بيان لقبح ما اقترفوه من ادعاء باطل.

٢. اعتراف الكافرين بأن المجرمين هم من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩].

أي: وما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون الأوائل ممن سبقنا^(٤).

٣. نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة أكثر أهل الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تُلَاحِظَ أَكْثَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إن أهل الله تعالى قليلون عددًا، وإن كانوا كثيرين وزنًا وخطراً، وأما الأعداء ففيهم كثرة، فإن لاحظتهم يا محمد صلى الله عليه وسلم فتنوك، وإن صاحبهم منعوك عن الحق وقلوبك^(٥)؛ لأن المشركين كانوا يدعون إلى عبادة الأوثان فما يتبعون بعبادتهم الأوثان إلا ادعاء آلهة بظن منهم^(٦)، وإن ما كان من ظن في القرآن الكريم فهو يقين^(٧).

٦٩/٣

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٧٩٢.

(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٤٩٦/١.

(٦) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٩٣/٢.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم

أن كفار قريش وغيرهم ممن سار على نفس طريقتهم قد خسروا؛ لأنهم وأدوا بناتهم، وحرّموا البحيرة بعقولهم، فقتلوا الأولاد سفهاً في الرأي خوف الفقر، وحجروا على أنفسهم في أموالهم، ولم يخشوا في ذلك الفقر، فأبان ذلك عن تناقض آرائهم، وكان من العرب من تقتل الولد سفهاً بغير حجة منهم في قتلهم، وهم ربيعة ومضر، وكانوا يقتلون لأجل الحمية، ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله^(١).

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن من فعل هذا قد ضل عن طريق الحق والرشاد، وما كان مهتدياً إلى طريق الصواب^(٢).

سادساً: موالة الأعداء:

لقد عالج القرآن الكريم هذا المظهر الذي هو علامة دالة على ضلال كل من وقع في شركه، وذلك من خلال الآتي:

١. دفع شبهة الموالة للادعاء في حق الله.

قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ [الكهف: ٥١].

أي: وما كنت متخذ المضلين أعواناً^(٣).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٦-٩٧/٧.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١٦٣/٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين

آثار الضلال في الدنيا والآخرة

إن للضلال آثارًا عظيمة تحل بكل ضالٍ في الدنيا والآخرة؛ إذ إن الله تعالى قد يمهّلهم، لكنه قطعًا لا يمهّلهم، ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى:

أولاً: آثار الضلال في الدنيا:

بالنظر في آيات القرآن الكريم التي أوردت موضوع الضلال يمكن الخروج بمعرفة آثار الضلال في الدنيا، ومن خلال جوانب، أهمها:

١. الضال يضيق صدره، ولا يتسع للهداية.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: شديد الضيق، كأنما يصعد في السماء؛ لشدته وثقله عليه^(١).

٢. العذاب الأليم في الدنيا.

ومثال هذا ما لحق بقوم نوح صلى الله عليه وسلم وغيره من الغرق، وغير ذلك من العذابات؛ فقد قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَحْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

أي: «فكذب نوحًا قومه إذ أخبرهم أنه لله رسولٌ إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحداية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به»^(٢).

٣. الضالون من الإنس يوبخهم القرآن بأن الأنعام أعلى منهم شأنًا في الهداية.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أي: «أخطأ طريقًا»^(٣).

٤. الختم على سمع وقلب الضال، وكذلك الغشاوة على بصره.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: أفرأيت الكافر الذي اتخذ دينه ما يهواه، وعدله الله عن المنهج المستقيم على ما سبق في علمه قبل أن يخلقه أنه ضالٌّ^(٤).

٥. الضال بغير علم يكون في الدنيا أسوأ الظالمين.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/٥٠٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٦٢/٣.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٩٩١.

ثانيًا: آثار الضلال في الآخرة:

من آثار الضلال في الآخرة:

١. اعتراف الشيطان القرين بضلال من كان معه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعْتُكَ وَلَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

أي: «قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللتك، ولكن كان في طريق بعيد عن سبيل الهدى»^(٥).

٢. العمى عن الهدى إلى الجنة يوم القيامة، ومن ثم دخول النار.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

أي: «من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله تعالى الدالة على وجوده وعلمه وقدرته، فلم يؤمن به، ولم يعبه فهو في الآخرة أشد عمى وأضل سبيلاً»^(٦).

٣. يحشر الضالون يوم القيامة عمياً وصماً وبكماً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيَائٌ وَبُكْمٌ وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِفِتْرِهِ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فإن الله تعالى بين أنه يوجد أظلم ممن كذب على الله تعالى، وافتري بتحريم شيء لم يحرمه الله تعالى؛ لأجل أن يضل الناس بجهل، أو افتراء عليه جاهلاً بصدور التحريم^(١).

٦. تمكن الشيطان من الضالين.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْذَرُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٤].

فإن من جعل الشيطان ولياً له من دون الله تعالى فشأنه أن يضلّه ذلك الشيطان عن طريق الجنة، أو طريق الحق^(٢).

٧. ضلال الأعمال للكافرين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ أَفْعَلُوهُمْ﴾ [محمد: ٨].

وضلال الأعمال هنا: جعلها على غير هدى واستقامة^(٣)، وذلك من خلال إبطالها؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان^(٤).

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٢٦١/٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩٣/٦.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤٦٩/٨.

(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص ٥٠٧.

(٥) المصدر السابق ص ٥١٩.

(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢١٥/٣.

سَعِيرًا ﴿[الإسراء: ٩٧].

فإن الإضلال هنا يعني: العدول عن المنهج؛ لفساد الطبع^(١).

علاج الضلال

إن القرآن الكريم قد بين أن هذا المرض الخطير الذي يوصل مرتكبه إلى الخروج من الملة له علاج، لكنه يحتاج إلى صدق في الطلب من الله تعالى لأن ينجيه من ذلك المرض، ويمكن تلخيص العلاج القرآني لهذا الضلال، من خلال الآتي:

١. عدم اتباع الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والخطاب للجميع فإن الكل لولا فضل الله لاتبع الشيطان إلا القليل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم^(٢).

٢. الرجوع إلى الله تعالى بصدق التوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٤٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠١٧/٣.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآخِذُ
وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ﴿النور: ٥٤﴾

«أي: أطيعوا طاعة من صميم قلوبكم، لا من ظاهر أقوالكم، وذكر الرسول مع الله؛ للإشارة إلى التلازم بينهما، وإلى أن طاعة الرسول واجبة على الأمة؛ لكيلا يتململ اليهود، والمنافقون من إجابة الرسول، زاعمين في نفوسهم الفاسدة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله، فيعصون الرسول، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، والخطاب للمنافقين ومن في قلوبهم مرض» (٣).

٥. اتباع سبيل المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا قَوْلَىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾
[النساء: ١١٥].

فإن سبيل المؤمنين هو دين الله تعالى (٤).

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الصد عن سبيل الله، الغلو، الفساد، الكفر، الهداية

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿[الفرقان: ٧١-٦٨]﴾

فإن إخلاص التوحيد، ونبذ كل أثر للشرك في العبادة لله تعالى، والتنزه عن قتل النفوس التي حرم الله تعالى، والبعد عن الزنى الذي عليه إثم عظيم في الدنيا والآخرة إلا التائبين إلى الله تعالى عن الذنوب، الذين صدقوا في إيمانهم، وأتبعوا ذلك بالطاعات، والأعمال الصالحات، فهؤلاء يجعل الله لهم مكان السيئات الحسنات، فيثابون عليها أجزل الثواب، وهكذا مضى أمر الله تعالى، فإن من تاب من إثمه، وظهر أثر ذلك في إقباله على الطاعة، واجتنابه المعصية، فهو الذي يقبل الله توبته، وبها يرجع إلى ربه بعد نفاذه (١).

٣. ذكر الله تعالى كثيرا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ
ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

حيث «أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره، بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وكل ما هو ذكر لله تعالى» (٢).

٤. طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

(١) انظر: المصدر السابق ص ٥٤٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٣٠.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٢١٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤٠٦/١.